مراجعات الفضاء المعلوماتي

واقعه وقوانينه ومميزاته، مصادر معلوماته وجرائمه إرهابه وإشكالاته ومحتوياته

• د. ماجد توهان الزبيدي

حسن مظفر الرزو / الفضاء المعلوماتي – بيروت
مركز دراسات الوحدة العربية ، 2007م ، 496ص ، حجم كبير وإيضاحيات .

مراجعة د. ماجد توهان الزبيدي

تشغل المعلومات في بيئاتها الجديدة، الأفراد وكافة أشكال المؤسسات من شمال العالم حتى جنوبه، لما باتت تشكله من صناعة ثقيلة لها ديمومة، فضلا عن دور بيئة الإنترنت المعلوماتية في تغيير العالم وإعادة تشكيلة من جديد. سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعلميا وأمنيا، ولما أحدثتة من تغييرات في مختلف مجالات حياة البشرية، قد تعادل، أو ربما تزيد، عما أحدثة اختراع الحداد الألماني يوهان جونتبرغ في اكتشاف الحروف المتحركة للطباعة !!

ويتمتع الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية، بسمعة علمية بارزة على صعيد نشر كتب ومؤلفات أصلية ومحكمة ومراجعة، لاسيما في موضوعات وحدة الأمة العربية وقضاياها وأعلامها، وله دورية مهمة هي «المستقبل العربي» ويديره ويعمل فيه طائفة من الباحثين العرب الوحدويين ممن يتمتعون بسمعة وطنية وعلمية وموضوعية ونضالية عالية .

ويعتبر نشر المركز لمثل هذا الكتاب، نقطة تحول في توسع اهتماماته البحثية، حيث يمكن اعتبار هذا العمل من المصنفات الجادة النادرة التي عرفت النور بالعربية خلال السنوات الأخيرة .

يناقش الكاتب على امتداد ثلاثة أقسام، توزعت على عشرة فصول، موضوعات عديدة تبدأ من مفاهيم علمية وتقنية في الفضاء المعلوماتي، مرورا بالأبعاد الإنسانية لذلك الفضاء، وإنتهاء بواقع ومتطلبات الفضاء المعلوماتي العربي، يتخللها عشرات الجداول الرقمية والإحصائية والأشكال التوضيحية المساندة .

يرى المؤلف أن الكيانات المعلوماتية: البيانات والمعلومات والمعارف، تحكمها سبعة قوانين هي : أن المعلومات قابلة للمشاركة بصورة لاتنتهي، وتزداد قيمتها بزيادة دقتها، وفي حالة انضمامها إلى معلومات أخرى، وأن أكثرها ليس بالضرورة هو الأفضل، وأخيرا لايمكن نفادها، مقارنة مع غيرها من موارد الحياة المعاصرة كالثروات الطبيعية التي تنذر بالنفاد كلما إزداد حجم استخدامها .

يبين المؤلف في إطار توضيحه للفضاء المعلوماتي، ثلاثة ميادين للفضاءات السائدة في العالم، هي : الفضاء الفيزيائي

التقليدي، والفضاء العقلي، والفضاء المعلوماتي. الأول: فضاء تحكمة قوانين الفيزياء التي صاغها «نيوتن»، والثاني الفضاء العقلي الذاتي للإنسان، مايزال الخبراء المتخصصون في العلوم العقلية والنفسية والفلسفية يسعون لفهم الآليات السائدة فيه، بينما الثالث : الفضاء المعلوماتي عبارة عن حلقة تحاول جذب الفضاء العقلي إلى الفضاء الفيزيائي عبر معالجة رقمية تسعى إلى عولمة الفضاء العقلي، فضلا عن أن الفضاء الثالث يمثل محاكاة رقمية لمفردات العالم الفيزيائي، مثل: أروقة التسوق، غرف الدردشة، السياحة الافتراضية، الكتب الرقمية، المصارف الإلكترونية، (المكتبات الإلكترونية والتوقيعات الإلكترونية)، يتم التعامل معها واستعراضها عبر مواقع شبكة ويب .

يمتاز الفضاء المعلوماتي عن غيره من الفضاءات ، بغياب الحدود الجغرافية أو السياسية أو الإقليمية، وغياب الحكم القاهر لعنصر الزمن على عمليات الانتقالات السائدة بين موارد المعلومات والعقد المعلوماتية المرتبطة بها، وغياب السلطة المسؤولة عن بيئة الشبكات مما يعني غياب ممارسات الرقابة الدينية أو الأخلاقية أو الاجتماعية .

ويبين الباحث الرزو، في كتابه ستة عناصر لمصادر المعلومات في الفضاء المعلوماتي تتاح على الإنترنت، أولها: الشبكة العنكبوتية العالمية، المعروفة اختصارا «ويب»، وهي ذات مستويين: الويب السطحية التي تتيح مواردها للعامة من دون مقابل، وتستضيف حوالي ملياري ونصف المليار وثيقة رقمية، تنمو بحوالي سبعة ملايين وثيقة يوميا، والثانية : الويب العميقة التي هي عبارة عن قواعد بيانات متخصصة في مختلف العلوم والمعارف ينتجها ويوفرها ويوزعها مئات من الناشرين وموزعي المعلومات، ويزيد محتوياتها عن خمسمائة وخمسين مليار وثيقة «ويب» مترابطة، وتتاح من خلال اشتراكات مدفوعة .

والمصدر الثاني لمعلومات ذلك الفضاء، هو البريد الإلكتروني وقوائم البريد، التي أصبحت اليوم لغة التخاطب والتواصل بين البشر، والأكثر شيوعا، إذ بات العامل في المؤسسات المعاصرة يتلقى أكثر من أربعين رسالة بريد إلكتروني يوميا أثناء ساعات العمل .

وثالثها: خدمات مجاميع الأخبار لتلبية حاجات وتعميق هوايات شخصية لدى الكثير من المستفيدين من فضاءات الإنترنت .

ورابعها: خدمات بروتوكول تنافل البيانات الذي يسمح لمن يريد الحصول على مصادر غير متناهية من المعرفة في جميع العلوم .

وخامس تلك المصادر : خدمات الدردشة الإلكترونية التي تتيح للملايين من الناس على امتداد المعمورة الخطابات الآنية بينهم في شتى مناحي الحياة وموضوعاتها والاهتمامات اليومية، بينما يكمن المصدر السادس في سجل الويب أو المدونات التي هي عبارة عن مواقع يتم تحديث محتوياتها بصورة يومية مرتبة زمنيا بصورة تنازلية .

في القسم الثاني من الكتاب، يتناول المؤلف ، موضوعات فرعية ذات أهمية لكثيرين في تخصصات مختلفة، منها: الإشكاليات المستوطنة في الفضاء المعلوماتي، كإشكال الهوية المعلوماتية حيث توفر الإنترنت بيئة خصبة لممارسات متباينة تشمل تغييب الهوية (الفردية)، أو تزييفها بأساليب مختلفة، ودون وجود أي نوع من الرقابة القانونية؛ وإشكال الشر المعلوماتي في عالم الشبكات المعلوماتية والمجتمعات الافتراضية، والذي يتوزع على نوعين من الشرور المعلوماتية، أولها : حقل أو نشاط مؤتمت يورث المستخدمين الموجودين داخل النظام المعلوماتي أو خارجه، ينتج بصورة متعمدة، أو من دون تعمد نوعا من أنواع الأذى أو خللا في أداء النظام المعلوماتي أو تدميرا جزئيا أو كليا في إحدى الكائنات المعلوماتية الموجودة في بيئتة .

أما الإشكال الثالث للفضاء المعلوماتي، فهو الجرائم المعلوماتية وحدودها، التي تعني جرائم تتخذ من الفضاء الافتراضي للحاسب مكانا لها وتستخدم الحاسب أو النظام الحاسوبي أداة لتنفيذ أركانها، من مثل: تراكم أحقاد وضغائن دفينة ورغبة بتدمير ما لدى الغير، ووجود تحد تقني بين مستخدم وآخر، بين شركة وأخرى لإفشال النظم الأمنية في البرامج والأجهزة، ووجود إغراءات مادية توفرها حكومات أو مؤسسات أو شركات أو أفراد للحصول على معلومات عن الغير، وارتكاب حماقة من قبل بعض المتمرسين بالبرمجة وهندسة البرامج والحاسب بقصد جلب الأضواء إلى شخصهم ، والفضول والرغبة في اكتشاف المجهول وتجريب الممنوع، وأخيرا وجود أغراض سياسية تستهدف مباشرة أنشطة استخبارية ضد نظم أو مؤسسات في بلدان أخرى.

ويتخصص الإشكال الرابع المستوطن في الفضاء المعلوماتي بالإرهاب المعلوماتي (Cyberterrorism)الذي يختلف عن الجريمة المعلوماتية التي تهدف إلى الاستيلاء على ممتلكات الغير أو تخريبها، بينما يشمل الإرهاب المعلوماتي الهجمات المعلوماتية التي تستهدف مكونات البنية التحتية المهمة مثل نظم المواصلات، شبكات توليد الطاقة وتوزيعها، نظم الاتصالات، البنية التحتية الاقتصادية، منظومة الدفاع والتعبئة، الأمر الذي يحتاج –كما بين المؤلف– إلى صياغة خطة محكمة للتقليل من مخاطر ذلك الإرهاب لحماية البنى التحتية الوطنية والحماية الفيزيائية للأدوات المعلوماتية، من أجهزة وبرامج وأنظمة .

إلى جانب ذلك يتناول المؤلف المجتمع المعلوماتي : أطواره وخصائصه ونسقه المفاهيمي ومقوماته وتحليل مكوناته والفيض المعلوماتي واقتصاديات المعلومات العولمي، ومجتمع الشبكات المعلوماتية الشاملة وإشكالية الفجوة الرقمية في ذلك المجتمع.

وأوجز مراحل بزوغ مجتمع العلوماتية كالتالي :المرحلة الأولى مجتمع غني بالمعلومات (1960–1979) والثانية :مجتمع مرتكز على المعلومات (1980–1989) والثالثة مجتمع هيمنة المعلومات (1990–2010) سادت فيها ثقافة المعلومات وانتشار الوسائط ,وبروز المعلومات بوصفها منتجا.

أما الخصائص المميزة لمجتمع المعلومات، فهي :السعة الاستيعابية المفتوحة لأي مستخدم أو حاسب شخصي على امتداد المعمورة، والسمة المفتوحة للفضاء أمام ورود أي مجهز للخدمات الرقمية، وغياب المركزية، أي إزالة جميع أشكال الامتيازات الفردية التقنية أو التنظيمية من داخل كيانه، والسريان الدائم لبيئته التي تسمح للبيانات والكائنات المعلوماتية بالانتقال بين المستخدمين والآلات والأدوات الرقمية المختلفة بصورة دائمة، وسيادة الصبغة الاقتصادية نتيجة حتمية للبيئة المفتوحة التي يوفرها مجتمع المعلومات بعد أن ألغى الحدود المكانية والزمانية، أمام السريان الحر للنشاط الاقتصادي، وتزايد الاهتمام بمسألة الأمن بعد أن أصبح المجتمع أكثر عرضة للتهديدات المعلوماتية.

ويعالج القسم الثالث من الكتاب، مسائل مباشرة في الفضاء المعلوماتي العربي توزعت على أكثر من مئة وخمسين صفحة، منها :

• معمارية الفضاء المعلوماتي العربي التي تتناول مستويين: أولهما، البنية التحتية للمعلومات والاتصالات العربية، التي لاتزال تعاني من قصور كبير في جاهزيتها مما انعكس بشكل ملحوظ على جغرافية الفضاء العربي المعلوماتي، وذلك من خلال جداول رقمية وإحصائيات، وثانيهما، مواد الفضاء المعلوماتي العربي المؤلفة من مصنفات رقمية تضم المواقع العربية بمختلف أنواعها، من خلال إيراد جداول رقمية تبين أعداد تلك المظيفات من الحاسبات ومزودي خدمات الإنترنت وتقنيات الربط الإقليمي العربي بالفضاء المعلوماتي للإنترنت .

• مجتمع المعلومات العربي وتدني نسب دخول المواطنين العرب إلى الفضاء المعلوماتي أقل من واحد في المئة في العراق، و(1.1) في المئة في اليمن ، (4.2) في المئة في سوريا على سبيل المثال، ووجود فجوة نسوية في مجال استخدام الإنترنت (6 في المئة) بينما يلحظ وجود تكافؤ بين الجنسين في استخدام الإنترنت لدى العدو الصهيوني (26,6) في المئة .

وبصورة عامة يتضمن الكتاب شرحا مدعما بإحصائيات للعوامل في تباين استخدام الإنترنت وانتشارها عربيا منها : البنية التحتية للمعلومات والاتصالات، وكلف الدخول إلى الشبكة، ومستوى الدخل القومي للبلد، وحجم اهتمام المؤسسة الحكومية بتوفير الخدمات المعلوماتية .

ويرى المؤلف من خلال أدلة وإحصاءات أن دولا عربية مثل: مصر والإمارات والسعودية وقطر، قطعت شوطا بعيدا في ترسيخ لبنات مجتمع الفضاء المعلوماتي ضمن حدود أنشطتها الوطنية، كإنشاء الحكومات الإلكترونية والحرص على فتح بوابات معلوماتية تذلل دخول مواطنيها إلى فضائها المعلوماتي الوطني وإتاحة تقنيات أساسية للتعليم الإلكتروني التزامني وغير التزامني، وقواعد بيانات المعرفة والدعم على الخط المباشر (الفوري) (Online) كالمنتديات الرقمية وغرف الحوار ولوحات النقاش وخدمات البريد الإلكتروني .

ويظهر المولف من خلال تتبعه لواقع التعامل العربي مع الفضاء المعلوماتي، من خلال لغة الجداول الرقمية، أهم فئات المواقع العربية الموجودة على شبكة الإنترنت (أواخر العام 2006م)، وأصناف وعدد المواقع المتوافرة في بعض الدول العربية، وخصائص بعض محركات البحث العربية الموجودة على الإنترنت واستخداماتها اليومية .

• المحتوى العربي على الإنترنت، يتوزع على المعلومات المحلية ونشرات الأخبار العربية ، المواقع الثقافية والاجتماعية، الموسوعات والأعمال المترجمة إلى العربية، الموسيقى ونغمات الهواتف الخلوية، والبريد الإلكتروني،

والدردشة والمنتديات بمختلف أشكالها .

ويبين هذا المبحث من خلال عدة جداول وإحصاءات مفردات الخطاب العربي المطروح في الفضاء المعلوماتي ، حجم الحضور العربي على الإنترنت (فئات المنتديات العربية المنتشرة على الإنترنت، ومواضيع زوار «ملتقى أهل الحديث»، وحجم الإقبال اليومي والشهري على أكثر المواقع التي يقصدها المستخدم العربي ، وترتيب أهم المواقع العربية المنتشرة على الإنترنت) .

والخلاصة التي يخرج منها قارىء الكتاب، أن أية محاولة لتلخيصه أو إستخلاصه أو مراجعتة في مقالة صحفية لن تفيه حقه، لوجود عشرات المباحث المعاصرة المدعمة بجداول إحصائية من جهة، ولغزارة وتركيز المعلومات والحقائق المعرفية التي اشتملت عليها أقسامه وفصوله، فضلا عن جدة موضوعاته وراهنيتها وقلة الكتابات العربية في وسائل الإعلام الجماهيرية العربية عن الكثير منها ، مما يجعل من هذا العمل الفكري الذي نستعرضة، أساسا ينطلق منه الباحثون وطلبة الجامعات لزيادة النتاج الفكري بالعربية وتعميقه وتحديثه ومتابعته، في مثل الموضوعات والقضايا التي يثيرها الكتاب وينبه عليها، كي لانبقى أمة عربية خارج قرية المعرفة العالمية, في ضوء تحكم شبكة الإنترنت وثورة المعلومات الراهنة, بجميع نواحي حياتنا المعاصرة وأنشطتها المختلفة، فضلا عن أن المعيار الحقيقي لقياس تقدمنا في مضمار مسائل الفضاء المعلوماتي هو ضرورة إطلاق كافة منظومة الحريات وإصلاح نظم التعليم من المرحلة الأساسية حتى الجامعية ,وبنائها على أسس من التوطين الحقيقي لتكنولوجيا المعلومات في بيئة وثقافة وقيم ولغة الأمة واحتياجاتها الملحة والفعلية, بعيدا عن الشعارات والمظاهر التعليمية ،وتحسين معدلات الدخل الفردي كي يتسنى للشعب اقتناء الحاسبات والبرامج والارتباط بالإنترنت بعد تخفيض تكلفتها ,ومقارنة واقعنا العلمي والمعلوماتي مع جارنا الذي يحتل أوطاننا والذي بات يحضر لمعاركه القادمة من خلال الفضاء ، واستخدام الأدوات الإلكترونية في التجسس والرصد والتشويش والتصوير والتخريب والتهديف، بعد أن أمسى يتعامل في مدارسه وجامعاته مع مناهج مبنية على قواعد بيانات وشبكات المعلومات ، ويؤسس لاقتصاديات وصناعات رقمية مبنية على المعرفة .